الفصل الرابع

ولا خير فينا إذا لم نَسْمعهَا

لم يكــن أمير المؤمنين يحمل مســئوليته حُمــلان رجل مفتون بنبوغه، صَلِفٍ بمكانه، مُسْتَعلٍ بسُلْطانه.

بــل كان يحملها بضمير الأمين على العهد، الباحث عن الحق، المســتنهض وجــود الآخرين وتفكيرهــم ليأخــذوا مكانهم معه، ويُنضجوا بآرائهم رأيه، ويُعاونوا بُرشدهم رُشده.

ولقد اقتضاه هذا، أن يُقدّس الشــورى، ويحنى رأسه العالى فى خشوع وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة.

فإذا بهرنا جلال المســئولية عند «عمر»، وسُموقها الصاعد فى الســماء، فلنضع أعيننا على القاعدة التى اســتقرّ فوقها هذا البناء العملاق. ألا وهى الشورى والمعارضة.

وإنه لأمر عجيب حقًّا أن يرفع لواء الرأى والمعارضة إلى المدى البعيد الذى ســنراه، رجل يؤمن بالنصوص إيمانًــا مطلقًا... رجل

يخاف أن يفسـر الآية من القرآن، خشـية أن يُحملها من رأيه مالا تحتمل!

رجل لا يبيح لنفسه أن ينحرف قِيدَ أنملة عن المنهج الموضوع، والخطـة المرسـومة، وبعبـارة واحدة: رجـلُ طاعـةٍ، وإيمانٍ، ومُتابعةً!!!

ولكن العجب، أن نرى في هذه الظاهرة أيَّ عجب..

فالذيـن يعرفون «محمـدًا»، ودين محمد معرفة سـوية عاقلة، يعرفـون أن احتـرام النّص، لا يعنى إهـدار الـرأى. وأن الطاعة المؤمنة، لا تنفصل عن المعارضة الأمينة.

ثـم إن «عمر» لم يكن بطبيعته رجل مُسـايرة. صحيح أنه رجل إيمان وطاعة كما ذكرنا..

ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التى يفرضها الاقتناع الوثيق.

وهو قد اقتنع بالرسول وآمن به.. ومن ثم فهو يقفو أثره فى غير تردد أو التفات..

وإنه لَيناقش الأمور التى تحتاج إلى مناقشـة... ويُسلِّم تسليما لقضايا لا يفهم - أحيانًا - حكمتها، ولكنه مقتنع سـلفًا بالرسـول الأمين الذى جاء بها..

يُقبِّل الحجر الأسود فى الكعبة، ثم يقول كأنه يخاطبه:

- «إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ووالله لولا أنى رأيت رسـول الله يقبلك ما قبلتك»!!

ويُهرول كاشفًا عن منكبيه، ويقول:

– «فيم هذا الرَّمَلان، – الهرولة – والكشف عن المناكب، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر؟ ومع هذا لا ندع شيئًا كنا نفعله فى عهد رسول الله ﷺ.

بل إنه ليعمد إلى ميزاب فى دار العباس فيقتلعه من مكانه إذْ كان ماء المطر يسيل منه إلى فِناء المسجد. ولكن لا يكاد العباس يخبره أن الرسول هو الذى وضع هذا الميزاب مكانه، حتى يسارع «عمر»، فيجىء بالميزاب، ويقسم على العباس لَيقفن فوق منكبيه – منكبى عمر – ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل!!

وإنه لَيُسأل عن تفسير الآية الكريمة: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾ [سورة الذاريات: الآيتان ١ – ٢]. فيقول: الذرايات ذروًا، هى الريح... ولولا أنى سمعت رسول الله يقوله ما قلته، والحاملات وقرًا، هى السحب.. ولولا أنى سمعت رسول الله يقوله ما قلته ﷺ!!

إلى هذا الحد كان «عمر» وقافًا عند النصوص والتعاليم، ملتزمًا التأسِّى والقدوة.

ومع هذا، فقد آمن بالشورى إيمانًا مماثلا لإيمانه بالنص والقدوة – والشورى رأى ومعارضة..

ولست أعرف شيئًا يرفع من قدر الشورى فى كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان «عمر» بها. وأسلوبه فى تطبيقها..

إن تطور الحياة السياسية فى المدينة لم يكن يومئذ قد أَذِن للمؤسسات الديمقراطية أن تظهر، من «برلمان» وغيره..

ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل، وفى تلك البيئة وذلك العهد. بخير فرص التألق والازدهار..

لم يحاول عمر قط أن يفرض رأيه، أو أن يُملى مشيئته، ولم ينفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه فى مسئولية هذا الحكم مشاركة فَعّالة صادقة.

والرائع الباهر فيه، أنه لم يكن يفعل ذلك تواضعًا أو تفضُّلا... بل سجية، وفِطرة، وواجبًا..

إذا كانت القضية التى يريد عمر أن يفصل فيها، لها فى كتاب الله بيان أنجز «عمر» كلمة الله.

وإذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التى ليس لها فى الكتاب تفصيل، لم يعتسف «عمر» ولم يتكلف، ولم يضع الآية الكريمة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (٣٨)﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨]. فى غير موضعها.

بل يعمد من فوره إلى الرأى والشورى وتقليب وجوه النظر..

والرأى عنده، ليس التماسًا للموافقة، بل التماسًا للحقيقة ولطالما كان يقول للناس:

– «لا تقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى. وقولوا الرأى الذى تحسبونه يوافق الحق»..

ولْنطالع هذا المشهد من مشاهد شُوراه:

– حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس، ودخل أكثر أهلها فى دين الله، رأى «عمر» ألا يقسم أرضها الزراعية بين المجاهدين، وأن تظل كما هى بأيدى أصحابها، ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال، فتقسم بين الناس جميعًا كل منهم ونصيبه المفروض.

وكان يرى أن تقسيم الأرض بين المجاهدين، سيقعد بهم عن الجهاد أولا، وينقص غلّة الأرض لضعف خبرة المجاهدين بالزراعة ثانيًا، ويخلق فى الإسلام طبقة من الإقطاعيين والمحتكرين ثالثًا، كما أنه سيدَع الآخرين الذين لم يتملكوا، ضائعين، ويحرم الأجيال الوافدة من حقها ورزقها.

وعارض رأيه هذا نفر من الصحابة.

وكانوا كلما علا صوتهم، واحتدَّت معارضتهم، قال «عمر» فى هدوء:

«إنما أقول رأيى الذى رأيته»..

وانفض الجمع من غير اتفاق على كلمة..

وفى اجتماع آخر، وكان «عمر» قد دعا فريقًا من الأنصار المشهود لهم بالحُنكة ونضج التجربة. فُتح باب المناقشة، وخشى «عمر» أن يجامله أحد فى رأيه بوصفه أمير المؤمنين. فبدأ الحديث قائلا:

«إنى دعوتكم لتُشاركونى أمانةَ ما حملتُ من أموركم، فإنى واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق. خالفنى من خالفنى، ووافقنى مَن وافقنى. ولستُ أريد أن تتبعوا هواى، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق. فوالله لئن كنتُ نطقت بأمر أريده، فما أريد به إلا الحق»...

* * *

والشورى، والمعارضة عند أمير المؤمنين، هما جناحا الحكم الصالح القويم، وهما رِئَتا كل حكم سديد.

من أجل هذا، لا يكاد يلى الأمر، ويتسمَّع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكرًا، ويدخل عليه «حُذَيفة» فيجده مهموم النفس باكى العين. فيسأله: ماذا يا أمير المؤمنين؟؟

فيجيب عمر: إنى أخاف أن أخطئ فلا يردنى أحد منكم تعظيمًا لى..

يقول حذيفة، فقلت له:

«والله لو رأيناك خرجت عن الحق. لرددناك إليه».

فيفرح «عمر»، ويستبشر ويقول:

«الحمد لله الذى جعل لى أصحابًا يُقومونني إذا اعوججت»..

إن أعظم مظاهر التكريم للمعارضة، نراها فى مواقف هذا العاهل الفذ منهــا.. فى ولائه الوثيــق لها، وتوفير كل فــرص الطمأنينة والأمن بل الإكبار لذويها..

يصعد المنبر يومًا فيقول:

«يا معشــر المســلمين، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأســى إلى الدنيا هكذا»؟؟

فيشــق الصفوفَ رجل ويقــول وهو يلوح بذراعه كأنها حُســام ممشوق: «إذن نقول بالسيف هكذا»..

فيسأله عمر: إيَّاى تعنى بقولك؟؟

فيجيب الرجل: نعم إياك أعْنى بقولى!

فتُضىء الفرحة وجه «عمر» ويقول:

«رحمك الله... والحمد لله الذى جعل فيكم من يقِّوم عوجى»!!

لم يكن هذا الموقف من أمير المؤمنين موقفًا اســتعراضيًّا، فعمر أكثر قوة وأمانة، من أن يلجأ لمثل هذه المواقف، إنما كان ســلوكًا صادقًــا، ونهجًا تلقائيًّا مخلصًا، ينشــد «عمر» مــن ورائه الوصول إلــى الحق والطمأنينة إلى أنه يحكم أمة من الأسُــود، لا قَطيعًا من النعاج!!».

إن «عمــر» حريــص على أن يمكن النــاس - جميع الناس - من حقهم فى ممارسة الأمر معه وأخذ مكانهم إلى جانبه.

ولـو أنه بطـش بالمعارضة، ولو مرة، إذن لبَاءَت الشـورى فى عهـده بِخِذلان كبير، لكنه فعل نقيض هذا تمامًا.. أقْصَى عنه أهل المُجاملـة والمُداهنة، ورفـع مكانًا عاليًا أولئك الذين يُناقشـون، ويعارضون. ويقولون: إلى أين؟.. ولماذا؟..

وكان فرحه بكلمة جريئة مُحِقَّة يُجابَه بها، أو يُجابَه بها أحد من وُلاته تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض..

ذات يوم يصعد المنبر، ليحدث المسـلمين فى أمر جليل، فيبدأ خطبته بعد حمد الله. بقوله «اسمعوا يرحمكم الله».

ولكن أحد المسلمين ينهض قائمًا؛ فيقول:

والله لا نسمع..، والله لا نسمع..!!

فيسأله «عمر» فى لهفة. ولم يا سلمان؟!

فيجيب «سلمان». ميَّزت نفسك علينا فى الدنيا. أعطيت كلاً منا بردة واحدة، وأخذت أنتَ بُردتين!!

فيُجيل الخليفة بصره فى صفوف الناس ثم يقول:

- أين عبد الله بن عمر؟.

فينهض ابنه عبد الله: ها أنذا يا أمير المؤمنين..

فيسأله عمر على الملأ: مَن صاحب البردة الثانية؟

فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين..

ويخاطب «عمر» سلمان والناس معه يقول:

- إننـــى كما تعلمون رجلٌ طُوال، ولقد جــاءت بردتى قصيرة، فأعطانى عبد الله بردته، فأطَلت بها بردتى..

فيقول سلمان وفى عينيه دموع الغبطة والثقة:

- الحمد لله.. والآن قل نسمع ونُطع يا أمير المؤمنين!!

أيبلــغ الناس من حرية المعارضة أن يُحددوا للحاكم عدد أثوابه وملابسه، وبهذه اللهجة الصارمة؟!

ألاَ مَن كان يعرف لهذا نظيرًا فى التاريخ كله، فليأتنا به!!

* * *

فى يــوم آخر، وهو جالس مع إخوانـــه، يخترم الصفوفَ رجل ثائر، ملء قبضته شــعر محلوق، ولا يكاد يبلغ «عمر» حتى يقذف بالشعر فى صدره فى مرارة واحتجاج..

ويمــوج الناس بالغضب، ويهمّ به بعضهم، فيومئ إليهم «عمر» ثم يجمع الشعر بيده. ويشير للرجل، فيجلس، وينتظر عليه «عمر» حتى يهدأ روعه، ثم يقول له:

- والآن، ما أمرُك؟؟

فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته:

- أما والله، لولا النارُ يا عمر!!

فيقول عمر: صدقتَ والله.. لولا النار!!.. ما أمرك يا أخا العرب؟

ويقص الرجل شكَاته، وفحواها أن «أبا موسى الأشعرى» أنزل به عقوبة لا يستحقها.. فجلده وحلق شعر رأسه بالموسى، فجمع الرجل شعر رأسه وجاء به إلى «عمر»..

فينظِر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول:

- لأنْ يكون الناس كلهم في قوة هذا، أحبَّ إلى من جميع ما أفاء الله علينا!!

ثم يكتب لأبى موسى يأمره أن يُمكّن الرجل من القصاص منه جَلْدًا بجلْد وحَلْقًا بِحَلْق!!

هذا حاكم يهتز فرحًا لكل احتجاج قوى، أو معارضة شجاعة - وإن رجلا واحدًا يطالب بحقه فى غيرِ حذر، ويقول كلمته فى غير جبن لأحب إليه كما قال، من كل ما فُتح له من الأرض، ومن كل ما ورث عن كسرى وقيصر!!

كان «عمر» واثقًا بنفسه، وباستقامة نهجه، ومن ثم لم يكن يُحاذر النقد أو يخاف المعارضة، بل كان يبحث عنهما، ويُثيب عليهما، ويثيرهما فى قلوب أمته وعقول شعبه، ويتخذ منهما مَشعلا يستضيء به وحُجَّة يستكمل بها صواب أمره..

يخطب الناس يومًا فيقول:

- «لا تزيدوا مُهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال»..

فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك..

فيسألها: ولم؟..

فتجيبه: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النساء: الآية ٢٠].

فيتهلل وجه «عمر»، ويبتسم ويقول عبارته المأثورة: «أصابت امرأة، وأخطأ عمر»..

وحتى حين كانت تأتيه المعارضة غَضبَى لافحَة، لم يكن يضجر منها أو يضيق بها.

بعد أن عزل «خالد بن الوليد» جمع الناس في المدينة وقال لهم:

- «إني أعتذر إليكم من عزل خالد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفةِ المهاجرين، فأعطى ذوى البأس، وذوى الشرف، وذوى اللسان»...

فنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال:

- «والله ما أعذرتَ يا عمر، ولقد نزعتَ فتى ولاَّه رسول الله، وأغمدتَ سيفا سلَّه رسول الله، ووضعتَ أمرًا رفعه رسول الله. وقطعت رَحِمًا، وحسدتَ بني العم»!!

قطيعة رحم.. وحسد.. يُتهم بهما أمير المؤمنين هكذا في غضب وعلى الملأ؟!

أجــل، ومــا زاد «عمر» على أن ابتســم ابتســامة صافية، وقال مخاطبًــا أبا عمرو: «إنك قريبُ قَرابةٍ، حديث الســن، تغضب فى ابن عمك»!

* * *

هذا ليس حاكمًا عادلا وحســب.. بل هــو معلم كبير، وصاحب مهارة بالغة فى صقل الجوهر الإنسانى وبعث قواه.

فأى أثر باهر يتركه موقف كهذا فى أفئدة الناس؟؟

وأية طمأنينة غامرة يملأ بها القلوب حاكم هذا سلوكه؟!

ولكــن، لم لا يفعل «عمر» هذا، وأكثر منه، وهو تلميذ رســول الله: وصاحب أبى بكر خليفته؟!

ولقد رأى بعينيه وســمع بأذنيه أعرابيًا من أهل البادية يتهجم على رسول الله ﷺ ويقول له وهو بين أصحابه:

- «أعطنى، فليس المال مالَك ولا مال أبيك».

ويرى الرسول يبتسم، ويقول للرجل:

- «صدقت» إنه مال الله!!

ويســتفِزّ المشــهد رجلا، هو «عمر» نفســه، فَيهــمّ بالأعرابى ليبطــش به، فيرده رســول الله فى رفق. وابتســامته تعلو شــفتيه كتهلُّلِ الربيع، ويقول له:

- «دعه يا عمر. إن لصاحب الحق مقالا»!!

أجـــل، على هذا النهج المســتقيم يمضى «عمر» مُقـدِّرًا كل نقد نافع، موقِّرًا كل معارضة أمينة..

وإن لجميع الناس الحق فى أن يشيروا على أمير المؤمنين، وفى أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته.

ولقد تركهم يفهمون تمامًا أن الشـورى ليسـت تَرفًـا، ولاَ مِلْءَ فراغ.. إنما هى نهوض الشـعب بمسـئولياته مع الحاكم يدًا بيد، ورأيًا برأى، ومشيئة بمشيئة..

وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد فى معرفة آرائهم، وتمحيص رأيه..

وكانت التجـارب الكثيرة التـى أثبتت حفاوتـه بالمعارضة، واحترامه للشورى..

كان هـذا وذاك على رأس الحوافـز التى ألهمت الناس - جميع النـاس - الشـجاعة فى إبداء الرأى، والمشـاركة فـى حمل تبعة المصير.

لقد كان عمر خبيرًا بأولئك الذين يَرصُدون الريح، ويسـتنبطون هوَى الحاكم، فيسبقونه بالرأى الذى يساير هواه!!

كان خبيرًا بهولاء، فلا يقيم لهم وزنًا..

وكان يقـول لأحدهم إذا تقدم لتمثيل دوره: «يا عدو الله، واللهِ ما أردتَ الله بهذا!!».

وكان هؤلاء قلة باهتة.

أما الأكثــرون، فقد كانوا من الطراز الرفيــع الباهر الذى يقول كلمتــه واضحة، صادحة، صادقة، نافعــة، يمليها عليهم إيمانهم بواجبهــم وبحقهم معًا.. ويشــجعهم عليها ســلوك أمير المؤمنين تِلْقاء نُصحائه ومعارضيه..

* * *

وعظيمٌ من عمر، أنه كان يلتمس المشــورة والرأى، كَفردٍ عادى لا كحاكم وأمير للمؤمنين..

فهو إذ يطلب الــرأى فى أمر، لا يبدى عن أى مظهر من مظاهر الســلطة.. بل يُشــعر الآخرين بأنهم يُسْــدون إليــه خيرًا جزيلا، وينقذونه من وطأة الحساب إذ يساعدونه بآرائهم على تبين الصواب والحق!!

وبهذه الروح نفســها يتلقى - كمــا رأينا - كل معارضة له، بل وتنديد به..

كان يجتــاز الطريق يومًا، ومعه «الجــارود العبدى» فإذا امرأة تناديه وتقول:

- رُويدك يا عمر، حتى أكلمك كلمات قليلة..

ويلتفــت «عمر» وراءه. ثم يقف حتى تبلغه الســيدة. فتقول له وهو مُصْغ مبتسم:

- يــا «عمر»: عهدى بك، وأنت تســمى «عُميرًا» تصارع الفتيان فى سوق عكاظ. فلمْ تذهب الأيام حتى سميت «عمر»... ثم لم تذهب

الأيام حتى سميت «أمير المؤمنين».. فاتق الله فى الرعية، واعلم أن من خاف الموت، خشى الفَوْت!!

فقال لها «الجارود العبدى»: اجترأتِ على أمير المؤمنين.

فجذبه «عمر» من يده وهو يقول: دعها فإنك لا تعرفها، هذه «خَوْلة بنت حكيم» التى سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهى تجادل الرسول فى زوجها وتشتكى إلى الله، فعمر والله حَرِىٌّ أن يسمع كلامها!!.

* * *

إن فطرة العربى، وروح الإسلام، أمدَّا المسلمين الأوائل لا شك بهذا الحظ العارم من الشجاعة فى مواجهة الحاكم.

ولكن لا ريب فى أن هذه الشجاعة الخارقة ما كانت ستبلغ مداها الشّامخ هذا، لو لم يكن سلوك الحاكم تجاهها سلوكا نبيلا جليلا يساعد على إربائها لا إطفائها - الأمر الذى كان يصنعه «عمر»..

لقد نجت الشورى فى عهد هذا الرجل الكبير من كل ضائقة وأزمة.

ذلك أن أزْمة الشورى توجد عندما يوجد الحاكم الذى يحب السُّلطة، أكثر مما يحب الحرية..

و«عمر» لم يفعل نقيض ذلك فحسب، بل إنه نظر إلى السلطان كما ينظر المضطر إلى لحم الميتة!!

وعلى الرغم من أنه جرَّد السلطة حين مارسها من كل زَهوها، ومن كل إغرائها، ومن كل ضراوتها، فقد ظل ينظر إليها نظرته تلك، وظلت علاقته بها علاقة مَن حُمِل عليها، لا مَن سَعى إليها..

ولقد كان دائمًا يعدُّ الشعب ويهيئه ليكون هو الحاكم الحقيقى، وليكون الخليفة الحق له يوم يذهب عن هذه الدنيا.

كان كل همه أن يتركه شعبًا قويًا صلْبًا، ولقد فعل...

وضع فى خدمته كل دخل الدولة. وأقام من أجله الثغور، والحصون، وشاد له المدن والأمصار..

ثم مع هذا، بل قبل هذا، وضع كلتا عينيه على القوة النفسية للشعب. تلك التى تتمثل فى شعوره الحقيقى بأنه سيّد.. وبأنه آمِنٌ كل الأمن.. وبأنه يصنع مصيره، ولا يُفاجَأ به!!.

وهكذا أخضع «عمر» للشورى كل خُطة وكل قرار.. وأعطى الحق كل توقير وكل إكبار.. ولم يجعل الشورى وقفًا على بطانة أو فريق من الناس. بل احترمها كحق مبرور للأمة كلها!!.

ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن رجلَ بِطانة.. بل كان رجلَ أمة، ورجلَ عالَم، ورجل تاريخ!!.

* * *

نحن أمام إنسَان فيه كل أصالة نشأته، وبيئته، ودينه..

رجل يعرف مكانه من الناس، ويعرف مكان الناس منه، ويعرف مكانه والناس معًا من تيَّار الحياة الإنسانية الهادر.

ثم هو بصير بحقائــق عالَمه من غير أن يدرس هذه الحقائق فى جامعة أو فى كتاب..

وأولــى هــذه الحقائق كما يعلم، وكما عبر هــو فى أعذب وأمتع وأجمع قول: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»؟

هذه أولى حقائق عالمنا الإنســانى، كما يدرك «عمر»: «الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد».

وهو كحاكم، لا يخافها، ولا يُجفل منها، بل يحبها حب عاشق ويقدسها تقديس مؤمن..

ومفهــوم الحرية عنده فى منتهى اليســر، وأيضًــا فى منتهى الشمول. فالحرية، هى حرية الحق...

الحق فوق جميع القيود..

ومــا دام الناس هم الذين يكتشــفون الحق، فيجــب أن يكونوا أحرارًا فى ممارسة كشفه..

وما دام لا يوجد إنسان واحد يملك الحق وحده، أو يعرفه أحد؛ فلكل فرد إذن الحق فى أن يسلك طريقه إلى معرفة الحق..

أى إن النــاس أحرار فــى أن يعلنوا آراءهــم، ويحدثوا بما فى أنفســهم فإن يــك صوابًا ربح المجموع هذا الصــواب، وإن يك خطأ تبيّن صاحب الخطأ خطَأه..

ولكنْ من حــق «عمر» علينا أن نقول: إن هذا الحق الذى يحترم اختلاف وجهات النظــر فيه هو الحق الذى لم يأت فيه من الله ولا من رسوله بيان واضح وفاصل..

وما أكثر نماذج الحق الذى ترك الله للناس أمر كشفها، وما أكثر الحقائق التى تتطلب آراء الناس لِتَظهر وتَبين!!

وعنــد «عمر» أن إبداء الرأى من حق كل فرد، ذكر وأنثى، كبير وصغير، وليس من حق الصفوة. أىِّ صَفْوَة...

ذلك لأنه ينظــر حوله، فيرى امبراطوريات تتهدم، وعروشًــا تنهار، وشعوبًا ذليلة، تصحو وتتحرر..

ثم ينظر.. بِيد مَن يتم هذا العمل الجليل؟

إنه يتم بأيــدى الرجال العاديين.. الأميين والفقراء والبســطاء الذين آمنوا «بمحمد» واتبعوا النــور الذى أنزل معه.. هؤلاء إذن، هم قوام الحياة الجديدة!!

فإذا كنا نحترم ســواعدهم التى تضرب وتبنى؛ فلابد أن نحترم كلمتهــم التى تُقال.. وإذا كنا نتطلب تأييدهم وتعضيدهم، فلابد أن نتقبل مشورتهم ونقدهم!!

ومــا داموا هم الذين يحملــون العبء أولا وآخرًا، فليس من حق حاكمهم أن ينفرد دونهم باتخاذ قراراته ورســم خُططه، وبالتالى ليــس من حقه أن يتجاهل حقهــم فى أن يقولوا: لا.. ما دام يحتاج إليهم فى يوم يقولون فيه: لبيك!!!

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس.

ويتمسك الآخر برأيه، ويقول لأمير المؤمنين: اتق الله يا عمر! ويكررها مرات كثيرة..

ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلا: صه، فقد أكثرت على أمير المؤمنين.

ولكن أمير المؤمنين يقول له: «دَعْه؛ فلا خير فيكم إذا لم تقولوها.. ولا خير فينا إذا لم نَسمعها!..».

أجل، لا خير فى الناس إذا لم يقولوا ما يرونه حقًّا، ولا خير فى الحاكم إذا لم يسمع منهم ويُصْغ إليهم..

* * *

ولكن ليست المشكلة مشكلة قول وسمع..

إنما هى أولا مشكلة الثقة والطمأنينة اللتين ترفعان من مستوى الشجاعة فى إبداء الرأى.. ومستوى العدالة فى تَقبُّله...

وهذه عظمة «عمر» فى هذا المقام، وهى كعظمته فى كل مقام...

عظمته فى إدراكه أن الشجاعة هى سر الحرية وجوهرها.. وأن الناس إذا فقدوا شجاعتهم، فقدوا بالتالى كل ما يؤهلهم للاستقامة والتقدم والتطور الصاعد السديد..

وعندئذ فالويل لهم، والويل للحاكم معهم..

إن الاثنين معًا. الحاكم والشعب، بتخليهما عن الشجاعة فى إبداء الرأى وتقبُّله. قد أزْمَعا الانسحاب من الحياة! !.

* * *

ألا هنيئًا لأمة يقودها هذا القوى الأمين «عمر»...

هـذا الرجل الذى بَرِئَ من آفة الحكم وآفة الحكام فى كل زمان - ألا وهى الحرص على أن تكون كلمتهم العليا..

بَرِئَ «عمر» من هذا، وتفوّق عليه..

وكانت الكلمة العليا عنده للحق أنَّى يكون.

ولقد يَقضى قضاء، ويُبرم أمرًا، فيعارضه صاحبه، ويقول للإمام العادل، والخليفة الأمين: ليحكم بينى وبينك آخرون..

فَلا وَربك لا يألـم «عمر» ولا يتأبّى، بل يرحب فى غبطة، لأنه سيجد عوْنًا على الحق إن كان مُحقًا، وهُدىً إلى الصواب إن كان مخطئًا!

لقى العباس يومًا وقال له:

- لقد سمعت رسول الله قبل موته يريد أن يزيد فى المسجد، وإن دارك قريبة من المسجد فأعطنا إياها نزدها فيه. وأقطع لك أوسع منها..

قال العباس: لا أفعل..

قال عمر: إذن أغلبك عليها..

فأجابه العبـــاس: ليس ذلك لك، فاجعل بينى وبينك من يقضى بالحق.

قال أمير المؤمنين: من تختار؟؟

قال العباس: حذيفة بن الْيَمان..

وبدلا من أن يستدعى أمير المؤمنين إلى مجلسه «حذيفة» انتقل هو والعباس إليه.

أجل، فحذيفة الآن يمثل ســلطة الخليفة نفســه. إنه ســيقضى ويفصل بين الخليفة، وواحد من المســلمين.. بين الدولة، وفرد من المواطنين.. شــيء تشبهه - لو اســتقامت على الطريقة - مجالس الدولة في عصرنا هذا...

وأمــامَ حذيفة بن اليمــان جلس «عمر»، والعبــاس. وقصًّا عليه الخلاف الذى بينهما.

فقال حذيفة: سمعت أن نبى الله «داود» عليه السلام أراد أن يزيد فى بيــت المقدس فوجد بيتًا قريبًا من المســجد، وكان هذا البيت ليتيم، فطلبه منه فأبى. فــأرادُ «داود» أن يأخذه قهرًا، فأوحى الله إليه: «إنّ أنزهَ البيُوت عــن الظُّلم لَهو بيتى»، فعدل «داود» وتركه لصاحبه..

فنظــر العباس إلى «عمر» وقال: ألا تــزال تريد أن تغلبنى على دارى؟.

قال عمر: لا..

قال العباس: ومع هذا، فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله..!!

* * *

أغلب الظن، أن «عمر» لو رأى انبهارنا اليوم بديمقراطيته وإنسانيته وعظمته. لَرمقنا بنظرة ملؤها الدهَش والعَجب..

فهو لم يكن في كل روائعه هذه، يحسب أنه يأتي أمورًا غير عادية، وهذا هو «جوهر» العظمة..

عظمة رجل يدعو بالرحمة لمن يُهدِي إليه أخطاءه..

لمن يقول له: لا... يا عمر..!!

ألا حيًّا الله أمير المؤمنين.

وتحية طيبة للبشرية التي أنجبته، وللدين الذي رَبّاه..!!!

□□□